

## الفكرة الدينية وإشكالية القيم في فكر مالك بن نبي

*The religious idea and the problematic of values in the thought of Malik bin Nabi*د.خديجة بلخير<sup>1</sup><sup>1</sup> جامعة ابن خلدون-تيارت (الجزائر)، khadidja.belkheir@univ-tiaret.dz

تاريخ النشر: 2022/05/05

تاريخ القبول: 2022/02/18

تاريخ الاستلام: 2022/01/05

## ملخص:

تحاول هذه الورقة العلمية تناول موضوع القرآن الكريم في بناء القيم الإنسانية، انطلاقاً من الإنسان الذي يعد المركز الأول في بناء الحضارة، واهتمام مالك بن نبي بالفكرة الدينية من حيث كونها عامل تركيب وتأليف مرتبط أشد الارتباط بمشروعه الحضاري، إذ كل القيم التي نص عليها القرآن تقوم في أساسها على مبادئ وأسس اجتماعية وخلقية هي مطالب إسلامية محضة، تسعى إلى تزكية النفس وبناء مجتمع فاضل وقد ربط مالك بن نبي الظاهرة القرآنية بالحقيقة المحمدية في بناء القيم، باعتبار أنّ محمد صلى الله عليه وسلم هو القدوة للمسلمين ومنه تفيض كل القيم. كلمات مفتاحية: ظاهرة، قرآن، قيم، حضارة، دين.

**Abstract:**

This scientific paper attempts to address the topic of the Holy Qur'an and its role in building human and social values; starting from the human being who is the first nucleus in building civilization, and Malik bin Nabi's interest in the religious idea as a constituent and compound factor closely linked to his civilizational project.

All the values stipulated in the Qur'an, are based on social and moral principles, are purely Islamic requirements that seek to purify itself and build a virtuous society. Malik bin Nabi linked the Qur'anic phenomenon with the Muhammadan reality in building values, considering that Muhammad, my God bless him, and grant him peace; is the role model for Muslims and from him all values flow.

**Keywords:**.. phenomenon, Quran, values, civilization, religion.

\* المؤلف المرسل

## 1. مقدمة:

يعتبر مالك بن نبي من المفكرين البارزين في الفكر الجزائري، حيث أولى أهمية كبيرة بالإنسان، الذي جعله مركزاً أساسياً في الدورة الحضارية، هذا الإنسان سخر الله له كل شيء في الوجود ليحيى حياة كريمة تليق بكيانه، وقد صور لنا القرآن الكريم هذه المسألة، وبين الطرق والسبل للتخلق بمختلف القيم التي تمكنه من الظهور بصورة الخليفة في الأرض، وما كان لهذه المعاني الروحية أن تخفى على مالك بن نبي، لأنه كان يعتبر القرآن أو الظاهرة الدينية منهجاً تشريعياً يرشد الأمة الإسلامية في كل ما يعترضها من صعاب ومشاكل في الحياة، بناء على هذا فهل للفكرة الدينية دور في بناء كل القيم بما فيها القيم الإنسانية والاجتماعية في فكر مالك بن نبي؟ وإلى أي مدى يمكن اعتبار الظاهرة القرآنية منهجاً كفيلاً لتحقيق النهضة وبناء الحضارة؟

يهدف البحث إلى الإشارة لأهمية مشروع مالك بن نبي في مسألة الحضارة، وكيفية توظيفها من خلال بناء القيم الإنسانية والاجتماعية، وكذا محاولة الوقوف على مؤلفه "الظاهرة القرآنية" ودوره في إرساء العقيدة عن طريق العقل والإيمان، وتبيان أن الإسلام هو الدين الوحيد من بين الأديان الذي لم يتعرض للتحريف في أصوله ومصادره بما فيه القرآن الكريم، متبعين في ذلك منهجاً تحليلياً نقدياً لأهم نصوصه.

## 2. أهمية كتاب الظاهرة القرآنية:

أدخل يعد كتاب الظاهرة القرآنية من أهم أعمال المفكر مالك بن نبي، هذا الكتاب الذي حاول من خلاله التعريف بمكانة القرآن الكريم لدى المسلمين، والرد في نفس الوقت على المستشرقين الذين كانوا يحاولون في كل مرة تشويه ما جاء فيه، وزعزعة الإيمان لدى القلوب الضعيفة، فبين مالك بن نبي أنه كتاب منزل، أنزله الله الذي يعلم الخبء في السموات والأرض، عن طريق رسول صادق قد بلغ عن ربه ما أمره بتبليغه، وأن « بين هذا الرسول الصادق وبين الكلام الذي بلغه حجازاً فاصلاً، وأن هذا الحجاز الفاصل بين القرآن وبين مبلغه حقيقة ظاهرة، لا يخطئها من درس سيرة رسول الله فاحصاً متأملاً، ثم درس كتاب الله بعقل يقظ غير غافل »<sup>1</sup>.

وهذا المنهج الذي سلكه مالك « منهج يستمد أصوله من تأمل طويل في طبيعة النفس الإنسانية، وفي غريزة التدين في فطرة البشر، وفي تاريخ المذاهب والعقائد التي توسم بالتناقض أحياناً، ولكنها تكشف عن مستور التدين في كل إنسان ثم هو يستمد أصوله من الفحص الدائب في تاريخ النبوة وخصائصها، ثم في سيرة رسول الله، بأبي هو وأمي منذ نشأته إلى أن لحق بالرفيق الأعلى، ثم في هذا البلاغ الذي جاء ليكون بنفسه، دليلاً على صدق نفسه، أنه كلام الله، المفارق لكلام البشر من جميع نواحيه »<sup>2</sup>.

فقد أضاف مالك بن نبي من خلال طرحه هذا إبداعا فكريا جديدا في الفكر الإسلامي، ولا يخفى أن يكون هذا الإنجاز العلمي سلسلة متتالية تابعة لمشروعه الحضاري، حيث راح يتأمل في هذا العقل الذي وهبه الله لكل حي في هذه الحياة، لأنّ من خلاله نحدد طريقنا ومنهجنا في كل دراسة .

يرى مالك بن نبي أنّ العالم الإسلامي قد تعرض لمنحة العقل على أيد العدو الذين سعوا إلى تهديم بعض جوانب الثقافة وكان من بينها سلاح الاستشراق، و « هو سلاح لم يدرسه المسلمون بعد، ولم يتبعوا تاريخه، ولم يكشفوا عن مكائده وأصاليه، ولم يقفوا على الخفي من أسرار مكره، ولم يستقصوا أثره في نواحي حياتهم الثقافية، بل في أكثر نواحي حياتهم الإنسانية، كيف؟ بل كان الأمر عكس ما كان ينبغي أن يكون، فهم يتدارسون ما يلقيه إليهم على أنه علم يتزوده المتعلم، وثقافة تنشرها النفوس ونظرتفتفيه العقول »<sup>3</sup>.

وبين مالك بن نبي خطر هذا الأمر بقوله: « إنّ الأعمال الأدبية لهؤلاء المستشرقين، قد بلغت درجة خطيرة من الإشعاع لا نكاد نتصورها »<sup>4</sup> وهذا الإشعاع من أعظم الأسباب وأخطرها في العقل الحديث، الذي يحاول إدراك دلائل إعجاز القرآن، حيث أوقع الشك في الأصول القديمة التي قامت عليها أدلة إعجاز القرآن، واستبدلها بأساليب ومناهج غاية في الدهاء والخفاء، حتى يتمكن من بلوغ غايته.

وأكد أنّ السمة التي يميزها الأسلوب القرآني « في جمال لا يضاهي وجلال مميز، وبالاعتراف الفوري بالعجز عن الإتيان بمثله، وهو الوجه الأقرب منالألبان لسائر البلغاء من البدو، على أنه من الصحيح أيضا أن هؤلاء المفسرين، وهم ينظرون في محتوى القرآن، قد رأوا في اتساع وعمق المعرفة التي يحملها للإنسانية »<sup>5</sup>، فهو إذن لا ينكر تلك الجهود التي بذلها المفسرون التقليديون في قراءتهم للقرآن الكريم خصوصا في كونه رسالة شاملة للإنسانية إلا أنه لا مانع حسب مالك بن نبي في رؤية مختلفة مادام أن معارفنا تتطور حول الطبيعة والنفس الإنسانية .

فقد أتيح له وهو يتابع دراسته في فرنسا بين 1930 و 1936 « أن يلاحظ أنّ الطلبة المغاربة والمشاركة الآتين لاستكمال دراساتهم عرضة للأفكار الإستشراقية، ذلك أنّ النخب الإسلامية، وبسبب قصورها عن إنتاج فكر محيّن وجدت نفسها تابعة للمدارس الاستشراقية-خاصة منها الفرنسية والإنجليزية-والتي تسعى لتحقيق أهداف ليست بالبريئة في جميع الحالات، وكان مالك بن نبي يرى أنّ أغلب هؤلاء المستشرقين مكلفون بمهمة إخراج النخبة المسلمة التي تدرس في الجامعات الأوروبية عن دينها »<sup>6</sup>، فقد لاحظ الكثير من الشبان المسلمون المتعلمون يستقون نظرتهم إلى الدين بل وحتى ما يتعلق بالوجدان الروحي أحيانا من كتابات المختصين الأوروبيين.

أدرك مالك بن نبي في الفترة التي قضاها خارج الجزائر الدور الخطير الذي يلعبه المستشرقون اتجاه تراثنا العربي الإسلامي حيث قال في هذا الصدد: « إن الإنتاج الاستشراقي كان شرا على المجتمع الإسلامي، لأنه ركب في تطوره العقلي عقدة حرمان سواء في صورة المديح والإطراء التي حولت تأملاتنا

عن واقعنا الحاضر وأغمستنا في النعيم الوهيمي الذي نجده في ماضيها أو في صورة التنفيذ والإقلال من شأننا بحيث صيرتنا حماة الضيم عن مجتمع منهار، مجتمع ما بعد الموحدين، بينما كان من واجبنا أن نقف منه عن بصيرة طبعنا، ولكن دون هواده، لا نراعي في كل ذلك سوى مراعاة الحقيقة الإسلامية غير المستسلمة لأي ظرف في التاريخ، دون أن نسلم لغيرنا حق الإصداع بها والدفاع عنها لحاجة في نفس يعقوب»<sup>7</sup>.

ولهذا اهتم بدراسة الظاهرة القرآنية كما يسميها من جانب الإعجاز، لبيّن حقيقتين عظيمتين وهما: أولاهما: أن إعجاز القرآن كما يدل عليه لفظه وتاريخه، وهو دليل النبي صلى الله عليه وسلم على صدق نبوته، وعلى أنه رسول الله يوحى إليه هذا القرآن، وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعرف إعجاز القرآن من الوجه الذي عرفه منه سائر من آمن به من قومه العرب، وأن التحدي الذي تضمنته آيات التحدي إنما هو تحدّ بلفظ القرآن ونظمه وبيانه لا بشيء خارج عن ذلك.

ثانيهما: أن إثبات دليل النبوة وتصديق دليل الوحي، وأن القرآن تنزيل من عند الله، كما نزلت التوراة والإنجيل والزبور وغيرها من كتب الله سبحانه، لا يكون منها شيء يدل على أن القرآن معجز، ولا أظن أن قائلًا يستطيع أن يقول إن التوراة والإنجيل والزبور كتب معجزة، بالمعنى المعروف في شأن إعجاز القرآن، من أجل أنها كتب منزلة من عند الله<sup>8</sup>.

فالقُرآن المعجز هو البرهان القاطع على صحة النبوة، أما صحة النبوة فليست برهاننا على إعجاز القرآن، وفي كل مرة يؤكد مالك بن نبي على مكانة القرآن الكريم في الكون وفكره التوحيدي، ويصرّح « بإمكانية وجود مطابقة بينه وبين أجزاء التوراة الخمسة الأولى، وبينه وبين الإنجيل، وبأنه ينتسب إلى تلك السلالة من الكتب السماوية، وهي في الحقيقة التي يذكرها الرسول صلى الله عليه وسلم عند الحاجة، ومن بين تلك الآيات التي تنطوي على تلك القرابة بين القرآن من جهة والتوراة والإنجيل من جهة أخرى»<sup>9</sup> لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾<sup>10</sup>.

### 3. الفكرة الدينية في مشروع مالك بن نبي:

أدخل إن الدين بالمفهوم المالكي يشير أحيانا إلى أنه المنهج أو الطريقة التي تنظم سلوك الفرد والمجتمع معا، وأحيانا أخرى يدل إلى « وجود النزعة الغيبية التي تعطي المبررات، وتوجد لدى الأفراد الروح الجماعية »<sup>11</sup>، والنزعة الغيبية ليست مقصورة على الإيمان بالخالق، بل يتسع ليشمل الغيب « ولو كان غيبا من نوع زمني أي في صورة مشروع اجتماعي بعيد الأمل، مثل بناء مجتمع جديد يضع حجره الأول جيل، وتواصل بناءه الأجيال المتتابعة »<sup>12</sup>.

فمالك بن نبي يفرق بين الدين المؤسس على الإيمان بالغيب، وبين الدين المؤله للمادة وهو ما أشار إليه في كتابه الظاهرة القرآنية، حيث قال: « فالمذهب المادي مبداه المادة التي هي العلة الأولى لذاتها ، وهي أيضا نقطة البدء في ظواهر الطبيعة ، فهي موجودة وغير مخلوقة »<sup>13</sup> أما « المذهب الغيبي فمبداه أن الله خالق ومدبر للكون »<sup>14</sup> والفرق بينهما يكمن لدى مالك بن نبي في أن الدين يعد عاملا أساسيا في بناء الحضارة ، بينهما يجعل المذهب المادي الدين عاملا معارضا في تاريخ الثقافة الإنسانية. يرى بن نبي أننا حينما نتأمل القرآن « يبدو الدين ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسان وحضارته، كما تحكم الجاذبية المادة وتتحكم في تطورها، والدين على هذا يبدو وكأنه مطبوع في النظام الكوني، قانونا خاصا بالفكر، الذي يطوف في مدارات مختلفة من الإسلام الموجد إلى أحط الوثنيات البدائية »<sup>15</sup>، فهو نوع من الفطرة التي فطرت عليها النفس الإنسانية .

ومسألة الفطرة في الإسلام هي أساس التوحيد، والإنسان هو خليفة الله في الأرض لقوله تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾<sup>16</sup> . وقوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلِيمًا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾<sup>17</sup> وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾<sup>18</sup> .

فالاتجاه الإنسان فطري نحو التدين، وهو اتجاه تكويني ذاتي، وجد مع الإنسان منذ بداية وجوده على الأرض، فهذا الاتجاه يفسر قوة الدفع الأصيلة والتزوع الذاتي في تكوين الإنسان نحو التعبد والتقديس، والاتجاه نحو تقديس عظيم يعبر الإنسان عن شعوره، وأحاسيسه التعبدية نحوه<sup>19</sup> . إن وجود هذا الكون ابتداء بهذا النظام الخاص يستلزم بمنطق الفطرة البديهي وبمنطق العقل الواعي على السواء أن يكون وراءه خالق مدبر، فالمسافة بين الوجود والعدم مسافة لا يملك الإدراك البشري أن يعبرها إلا بتصور إله ينشئ ويخلق ويوجد هذا الوجود، والقرآن الكريم لم يجعل قضية وجود الله قضية لعلم الله أن الفطرة ترفض اللوثة، إنما القضية هي قضية توحيد الله، وتقرير سلطانه في حياة العبد<sup>20</sup> .

ومالك بن نبي يرى أن الدين : سنة تاريخية بمعنى أنها من ثوابت الإنسان، وأنه لم يخل التاريخ أبدا من وجود الفكرة الدينية عند أي أمة من الأمم أو شعب من الشعوب، بأي صورة من الصور، ولذلك فإن بن نبي يرجع إلى التاريخ باعتباره السجل الأمين للتحويلات التي شهدتها البشرية، فيجد التاريخ يشهد أن الدين من ثوابت الشخصية الإنسانية ليس هذا فحسب، بل إن الدين كان من وراء كل المنجزات البشرية<sup>21</sup> .

يقول مالك بن نبي: « كلما أوغل المرء في الماضي التاريخي للإنسان، في الأحقاب الزاهرة لحضارته، أو في المراحل البدائية لتطوره الاجتماعي، وجد سطورا من الفكرة الدينية »<sup>22</sup> فبقايا آثار الإنسان القديم لشعائره الدينية سارية جنباً إلى جنب مع الفكرة الدينية التي طبعت قوانينه، وحتى علومه فولدت الحضارات في ظل المعابد، وأصبحت عوائد الشعوب وتقاليدها تشكل بصورة ميتافيزيقية، وما ينهي إليه مالك بن نبي أنّ الدين هو التعبير التاريخي والاجتماعي لكل تجارب الإنسان المتكررة خلال القرون .

إنّ القرآن-يقول مالك بن نبي:- « لم يأت قطعاً وبصورة مباشرة، لا بالحساب العشري ولا بالجبر، ولكنه أتى بالمناخ العقلي الجديد الذي يتيح للعلم أن يتطور كما تطور بالنسبة إلى مرحلته السابقة في العهد الإغريقي والروماني، والأمر الجدير بالملاحظة هو أن تطور العلم لا ينافى بالمعطيات العلمية فحسب، بل بكل الظروف النفسية الاجتماعية التي تتكون في مناخ معين، والأمر الجدير بالملاحظة أيضاً هو أنّ مراكز الاهتمام للعقل تتغير من عصر إلى آخر، من حضارة إلى غيرها، حسب التغيرات التي تحدث في المناخ العقلي بالذات »<sup>23</sup>.

#### 4. القيمة الاجتماعية للظاهرة القرآنية:

تكلم مالك بن نبي عن القيمة الاجتماعية لأفكار القرآن في كتابه " الظاهرة القرآنية" متناولاً بذلك مسألة الخمر وكيفية نجاح المسلك الشرعي الذي اتبعه القرآن من أجل أن يواجه هذه المشكلة، في حين فشلت الكثير من الشعوب الغير المسلمة في ذلك، والأمر يعود بالنسبة إليه إلى المنهج الذي استعمله القرآن اتجاه هذه المشكلة والذي تجلّى من خلال ثلاث مراحل :

أولاً: قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾<sup>24</sup> .

ثانياً: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾<sup>25</sup> . ثالثاً: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾<sup>26</sup> .

يحلل مالك هذا العرض التخطيطي بقوله: « الموقف الأول سيكون مرحلة حضارة ضرورية، هي المرحلة النفسية للمشكلة وعلى أساس هذا البناء الفاضل للضمير المسلم يقوم النص التحديدي في الآية الثانية ﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ فهنا تحديد لأنه لكيلا نكون سكارى خلال أوقات الصلوات الخمس، يجب ألا نقرب السكر أبداً، فهو يهدف إلى أن يطهر مدمتي الخمر تدريجياً، وإلى أن يرتب حظراً خلقياً قبل أن يسن التحريم النهائي، وتوضع العقوبة المجازية لارتكاب الجرم المحرم »<sup>27</sup>.

في هذه المسألة بالضبط يشير مالك بن نبي أن القرآن تحاشى مشكلة اقتصادية كبيرة ألا وهي مشكلة تجارة الخمر مع أنها كانت موجودة في عصر الجاهلية، وكان العرب على ذلك، ففي « هذا الوسط الذي انتشر فيه شرب الخمر وتجارته، أثار القرآن المشكلة، وكان من المصلحة أن يتدرج في تكييف الحالة الاقتصادية الجديدة، وربما كان هذا هو الذي يعلل الموقف الثاني قبل التحريم النهائي »<sup>28</sup>. بعد ذلك يتحدث مالك بن نبي عن التجربة الأمريكية في التعامل مع الخمر فيقول: « ولعلنا نستطيع أن ندرك أهمية هذه الاعتبارات عن الظاهرة القرآنية لو لم يكن لدينا مثال آخر لتشريع إنساني نجعله أساساً لموازنة الخطة القانونية، فقد أثارت المشكلة بعد ذلك بثلاثة عشر قرناً من الزمان اهتمام المشرعين في أمة، لعلها أرقى الأمم حضارة هي الولايات المتحدة الأمريكية، وسنضع هنا كما فعلنا قبل ذلك تخطيطاً لخطوات هذا التشريع الذي رأى النور في أمريكا في صورة تعديل دستوري عام 1919 »<sup>29</sup>.

فما أراد الوصول إليه مالك بن نبي من خلال طرحه هذا هو أن الدين ظاهرة كونية، وليس محتكراً على أمة واحدة من الأمم، وأن الظاهرة القرآنية تحمل الكثير من القيم الاجتماعية لتوطد دعائم المجتمعات بعضها مع بعض فيسود السلام والأمن السلمي.

### 5.الدين والقيم الإنسانية:

لقد ركز مالك بن نبي في مشروعه الحضاري على الإنسان باعتباره المحرك الأول في التنمية، حيث انطلق من الفكرة الدينية التي مفادها أن تغيير العالم يبدأ من تغيير الذات لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾<sup>30</sup>، فلا يمكن تغيير أي وضع قائم ما لم يتم تغيير الذات، حيث أننا نجد أن مسألة التغيير في القرآن الكريم دائماً ترتبط بالإنسان، هذا الذي كرمه الله وأخرجه في أحسن تقويم، يقول مالك بن نبي: « فقضية تكريم الإنسان لم تهمل ولم تنس في الثورة الإسلامية منذ أربعة عشر قوماً: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾<sup>31</sup> هكذا وضع القرآن الكريم في آية لكرامة الإنسان قاعدة سامية بالنسبة لدينا وأخرته »<sup>32</sup>.

فمالك بن نبي يعتبر الإنسان هو العنصر الأول في تكوين الحضارة، ونجده يفرق بين الإنسان الأوربي والإنسان المسلم القابل للاستعمار، فمشكلة الأول حركة مضطربة لا يشعر بها شعب خارج هذا التيار، أما مشكلة الثاني فتدور حول العزوف عن الحركة والسير في ركب التاريخ، وبوجود هذا الفارق بينهما تتأسس القيم الإنسانية.

ويمكن استخراج أنواع القيم من النصوص القرآنية، والتي تنوعت بين الخلقية والدينية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها هذا التنوع الذي لا نجده في بقية الكتب السماوية الأخرى، مما يدل على عظمة هذا الكتاب المنزل يقول مالك بن نبي: « إن القيمة الدينية للفرد لم تظهر في الديانة

اليهودية لا على عهد حزقيال exacheil النبي، فحتى ذلك العهد كان الواجب ونتائجه الخلقية يقعان على عاتق الأمة، التي تتوقع جزاءها في ذلك النصر الموقوت (يوم ينصر الإله قومه) وقد كان الإنجيل على العكس من ذلك، فقد قصر الجزاء كله على يوم القيامة، فقد أصبحت الأخلاق من مسائل الآخرة، وأضحت برمتها من الهموم الشخصية، حتى جاء القرآن وجدناه يقيم بناءه الخلقى على أساس القيمة الخلقية للفرد، وعلى العاقبة الدنيوية للجماعة، فأما الفرد فإن ثوابه مستحق يوم الحساب ومن أجل هذا يقرر القرآن صراحة القيمة الدينية للفرد في قوله تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾<sup>33</sup> .<sup>34</sup>

وإن كان مالك بن نبي يبرز مكانة القرآن الكريم في اهتمامه بالذات الإنسانية، فإن ذلك لا يعني أنه ينكر دور الكتب المنزلة في نشر الوعي الديني للإنسانية، بل يعتبره مكملًا ومصححًا لمعلومات الكتاب المقدس، ويقر بذلك التشابه بينهم جميعًا، مع احتفاظ القرآن بطابعه الخاص، يقول مالك: « إنَّ القرآن يؤكد مستعلنا صلته بالكتاب المقدس فهو يطلب دائما مكانه في الدورة التوحيدية، وهو بهذا وبذلك يثبت باعتداد التشابه بينه وبين التوراة والإنجيل، وهو يؤكد هذه القرابة صراحة..وعلى كل فإن هذه القرابة تسم القرآن بطابعها الخاص، فهو في كثير من المواضيع يبدو مكملًا أو مصححًا لمعلومات الكتاب المقدس»<sup>35</sup>.

والقيم الإسلامية هي الفضائل الخلقية والاجتماعية التي تقوم عليها حياة المجتمع الإسلامي والإنساني، وهي المبادئ والأسس التي يركز عليها الفرد في توجيه سلوكه وتصرفاته على نحو محدد، وهي مجموعة الأخلاق التي تصنع نسيج الشخصية الإسلامية والدفاع عن مصالح الوطن تجاه أي خطر حقيقي، وتجعلها قادرة على التفاعل مع المجتمع، وهي وسيلة الإنسان لبناء نفسه وتطويرها فبدونها يصبح الإنسان لا قيمة له، لأنها تسم مباشرة جوهر الإنسان وحياته وتقدمه<sup>36</sup>.

وإن كنا نعاني من أزمة القيم في العالم العربي الإسلامي، فسببه هو ابتعادنا عن مبادئ الدين، ومخالفة شرائعه والتقليد الأعمى لتجارب الغرب دون غرلة أو صقل لمكتسباته، ونجد مالك بن نبي يحث بذلك على دور المسلم ورسالته وعلى مدى التشيع بالقيم التي بثها الرسول في الأمة الإسلامية، إذ كل المواقف التي حدثت مع محمد عليه الصلاة والسلام يعتبرها مالك ظاهرة تستوجب التحليل، ومنها ما يروي « أن رسول الله مرّ ذات يوم أمام بستان أنصاري في طرف المدينة، فأشار عليه الرسول بأن يستخدم طريقة معيّنة في تأبير النخل، ولكنه بعد ذلك وجد أن الأنصاري قد ترك الطريقة التي نصحه بها لأنها لم تحقق له أقصى ما يمكن من المصلحة فأقره النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك، معلنا على الفور أن التجربة الشخصية مقدمة على رأي الفرد، حتى ولو كان النبي»<sup>37</sup>.

يفسر مالك بن نبي هذه الحادثة بأسبقية العقل والتجربة في سير النشاط الدنيوي، كما تبدو أن هناك قيمة مطلقة للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وتتمثل في عدم الخلط بين الدين والحياة في

المسائل التي لم يفصل فيها الوحي الرباني بشيء، ونلمس من خلال هذا منهجا تربويا وأخلاقيا كان يتعامل به الرسول عليه الصلاة والسلام مع أصحابه رضي الله عنهم .

كان الرسول صلى الله عليه وسلم خلقه القرآن، فقد تخلق بكل ما في القرآن الكريم من خلق حسن، حتى قال فيه الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾<sup>38</sup> وقال أيضا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾<sup>39</sup>، ولا بد على المسلم التخلق بأخلاق القرآن، وأخلاق النبي عليه الصلاة والسلام لأنه هو القدوة التي يجب الاقتداء بها.

ومضمون القرآن ولغته وسيرة المصطفى تعد بالنسبة لمالك بن نبي ظاهرة لها أبعادها الإنسانية والاجتماعية، ولوحة أخاذة لمشهد الحضارات، تستدعي الوقوف عليها يقول مالك بن نبي: « وإنّ درسه الأخلاقي لهو ثمرة نفسية متعمقة في الطبيعة البشرية تصف لنا النقائص التي ينهى عنها، وينفر منها والفضائل التي يدعوننا إلى التأمي بها، من خلال حياة الأنبياء، أولئك الأبطال والشهداء في سجل ملحمة السماء وعلى هذا الأساس يدفع القرآن المؤمن إلى الندم الصادق، حين يعده بالغفران، أساس التربية الجزائية في الأديان السماوية»<sup>40</sup>.

ويصف تعجب الفيلسوف توماس كارليل بالقرآن الذي اعتبره صدى متفجر من قلب الكون نفسه، وهي صرخة فلسفية أمام عظمة الظاهرة القرآنية، التي تجعل العقل البشري حائرا أمام عمق معانيه، إنّه بناء فريد وهندسة فنية تتجاوز قدرات الفرد المبدعة.

إنّ عبقرية الإنسان-يقول مالك:- « تحمل بالضرورة طابع الأرض، ليخضع كل شيء لقانون المكان والزمان، بينما يتخطى القرآن دائما نطاق هذا القانون، وما كان لكتاب بهذا السمو أن يتصور في حدود الأبعاد الضيقة للعبقرية الإنسانية. ومن المقطوع به أنه لو أتيح لأحد الناس أن يقرأ قراءة واعية يدرك خلالها رحابة موضوعه، فلن يمكنه أن يتصور الذات المحمدية إلا مجرد واسطة لعلم غيبي مطلق»<sup>41</sup>.

من بين النصوص القرآنية التي حملت قيما إنسانية قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾<sup>42</sup> وتفسير ذلك ضرورة إرجاع الأمانة إلى أصحابها، وقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾<sup>43</sup> فالإحسان من القيم الإنسانية وهو إتقان العمل وتأديته بأكمل وجه، وقد ذهب المتصوفة إلى اعتباره درجة كبيرة من الإيمان، وربطوه بالحديث المصطفى (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك)<sup>44</sup>.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولَى الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُأْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾<sup>45</sup> العفو والتسامح والصفح من القيم الأخلاقية التي يجب أن يتخلق بها الإنسان، فهم يتحقق العيش المشترك والأمن والسلام بين الإنسان ونفسه من خلال الإحساس بالطمأنينة، وبين الأنا والآخر، والصفح والعفو مرتبط بمغفرة الله ورحمته .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى عباده الذين اجتمع فيهم خصال الخير، كالإنفاق وكظم الغيظ، والعفو والإحسان كقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾<sup>46</sup>.

وعليه تبرز أهمية العنصر الديني في تنظيم الحياة الاجتماعية بعد فشل العلم -رغم أهمية ما قام به في المجال المادي في حل المشكلات في جانبها الأخلاقي، ولعل القيم المستوحاة من السماء هي التي يمكن أن تكون محل اتفاق المجتمعات البشرية رغم اختلافاتها الظاهرية، لأن للقيم السماوية خصوصية تتمثل في قدرتها الذاتية على النفاذ إلى ذات الفرد وتوجيه سلوكاته<sup>47</sup>، والدين لم يوجد إلا لتوجيه الناس وتنظيم حياتهم حتى لا تسود الفوضى والفساد في الأرض.

لقد ذهب البعض إلى أن « أعمال مالك بن نبي بشكل عام هي علم نظري تطبيقي مرتبط بالواقع الذي عاشه في وطنه العربي والإسلامي من خلال مشاركته للأحداث الإنسانية العالمية، كما أن من مميزاتها أيضا أنها متصلة بواقعنا تكشف إيجابياته وسلبياته »<sup>48</sup>، ومشروع القيم الذي بين معاملة من خلال الظاهرة القرآنية هو تابع لمشروع الحضارة، حيث عالجا انطلاقا من واقع معاش بظروفه ومشاكله، متعمقا في العلوم المعاصرة المتربطة بحضارة الإنسان.

هكذا كان مالك بن نبي ينظر إلى القرآن الكريم على أنه يرسم لوحة مدهشة للمأساة الأبدية التي تعيشها الحضارات ويدعونا إلى النظر فيها بإمعان<sup>49</sup>، ولم يكن كاتباً محترفاً، أو عاملاً في مكتب مكبا على أشياء جامدة من الورق والكلمات، ولكنه رجل شعر في حياته الخاصة بمعنى الإنسان في صورته الخلقية والاجتماعية<sup>50</sup>.

و ما يمكن الوصول إليه من خلال مؤلفه " الظاهرة القرآنية" أنه على رغم موازنته بين النصوص التوراتية والنصوص الإنجيلية في تلخيص الأخلاق، استنتج « أنه إذا كانت الوصايا العشر الواردة في أجزاء التوراة الخمسة تدعو إلى ترك فعل الشر، وأن الأناجيل تدعو إلى عدم محاربة الشر بالشرف فإن القرآن الذي جاء تلخيصاً وتحسيناً للأخلاق السابقة له يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر »<sup>51</sup> فهذا تأكيداً على أن القرآن لم يتوقف عند حدود الفكر التوحيدي، بل تناول كل ما له علاقة بالإنسان في الكون.

إنّ هذا التحليل ليس عبارة عن دراسة دينية فقط، بل له أبعاد نفسية واجتماعية، وقد ربط مفاهيمه مالك بن نبي بالاكتشافات العلمية، وهذا ما أقره الطبيب الفرنسي إيمانويل بينوا Emmanuel Benoist قائلاً: « كان القرآن هو العامل الأساسي والنهائي الذي حداني إلى إعلان إسلامي، لقد شرعت في دراسته بنظرة المثقف الغربي الناقدة، وإنتي مدين كثيراً للعمل الشيق الذي أنجزه مالك بن نبي والذي عنوانه " الظاهرة القرآنية" فقد اقتنعت بعد قراءته بأن القرآن كتاب إلهي، إذ أن بعض آياته تتضمن نفس المفاهيم والاكتشافات العلمية الحديثة، وهذا ما جعلني أقتنع بشكل نهائي »<sup>52</sup>، وليس من المستبعد أن نعتبره قد أضاف لمسة جديدة في الفكر الديني، تماما كما فعل كل من أمثال

محمد عبده ، محمد إقبال وغيرهما، وهذا الفهم للمنهج القرآني « وإطلاعه الواسع على التراث الإسلامي منحته غزارة في التعبير الأدبي عن دقائق العمل الإنساني على المستوى الفردي والجماعي لجميع جوانب الإنسان الحضارية، وخصوصا ذلك المستوى الجمعي الذي يمثل روح الحركة الثقافية للجماعات البشرية ذات الأصل الواحد»<sup>53</sup>.

## 5. خاتمة:

ضع لقد شغل مشروع القيم في فكر مالك بن نبي حيزا كبيرا في مشروعه الفكري، باعتبار أن له علاقة بالإنسان الذي يعتبره المحرك الأول في الدورة الحضارية، فالحضارات تبنى وترتقي بقيمها ومبادئها التي هي أساس النهضة والتقدم، ولقد ربط القيم بالفكرة الدينية، لأنّ الدين في جوهره مجموعة من القيم الروحية والأخلاقية التي تقوم سلوك الإنسان وتفعل دوره في المجتمع ، ويمكن تحديد أهم النتائج المتوصل إليها في بحثنا هذا :

1-إنّ الهدف الذي سعى إليه مالك بن نبي من تأليفه كتاب "الظاهرة القرآنية" هو إثبات صحة الرسالة الإسلامية، ودرء تلك الشبهات التي ألصقت بالإسلام.

2-وقوف مالك بن نبي على ظاهرة الاستشراق ما هو إلا دعوة إلى ضرورة الالتفات لتراثنا العربي الإسلامي، والاهتمام به .

3-تحقيق الاستقلال السياسي والاقتصادي وحتى الفكري لا يكون إلا بعد تجاوز المشكلة التي رصد معالمها المستشرقون في حضارتنا الإسلامية.

4-دور الفكرة الدينية في ترصيد معالم الهوية الإسلامية.

5-للفكرة الدينية دور كبير في بناء القيم الإنسانية لدى مالك بن نبي.

6-إنّ الدين عند مالك بن نبي هو المركب الحقيقي لعناصر الحضارة وللقيم الإنسانية.

## 6. قائمة المراجع:

<sup>1</sup>-بن نبي مالك، الظاهرة القرآنية، ترجمة: عبد الصبور شهين، دار الوعي، الجزائر، ط1، 2013، ص: 18.

2-المصدر نفسه، ص: 18.

3-المصدر نفسه، ص: 20.

4-المصدر نفسه، ص: 20.

5-المصدر نفسه، ص: 10.

6- بوكروخ نور الدين، جوهر مالك بن نبي، المكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر، 2016، ص: 16.

7-بن نبي مالك، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد، بيروت، ط1، 1969، ص: 25.

8-بن نبي مالك، الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص: 24.

9- بوكروخ نور الدين، جوهر مالك بن نبي، المرجع السابق، ص: 20.

10-سورة يونس، الآية: 37.

- 11- بن نبي مالك، فكرة كمنويلث إسلامي، ترجمة: الطيب شريف، دار الفكر، دمشق، ط1، 1960.
- 12- بن نبي مالك، شروط النهضة، ترجمة: عبد الصابور شهبين، دار الفكر، دمشق، 1986، ص: 51.
- 13- بن نبي مالك، الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص: 73.
- 14- المصدر نفسه، ص: 79.
- 15- المصدر نفسه، ص: 300.
- 16- سورة البقرة، الآية: 313.
- 17- سورة الروم، الآية: 30.
- 18- سورة الأعراف، الآية: 122.
- 19- الفقيه محمد جواد، الإنسان والدين، دار الأضواء، بيروت، 1993، ص: 11.
- 20- كاظم حكمت، الفطرة في الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008، ص: 13.
- 21- بن لحسن بدران، البور الحضاري للدين: دراسة تحليلية لمفهوم ودور الفكرة الدينية المركبة عند مالك بن نبي، مجلة جبل للدراسات الأدبية والفكرية، العدد 10، ص: 126. 21
- 22- بن نبي مالك، الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص: 69.
- 23- بن نبي مالك، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، المصدر السابق، ص: 28.
- 24- سورة البقرة، الآية: 219.
- 25- سورة النساء، الآية: 43.
- 26- سورة المائدة، الآية: 90.
- 27- بن نبي مالك، الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص: 298.
- 28- بن نبي مالك، الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص: 299.
- 29- بن نبي مالك، الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص: 299.
- 30- سورة الرعد، الآية: 11.
- 31- سورة الإسراء، الآية: 70.
- 32- بن نبي مالك، بين الرشاد والتهيه، دار الفكر، دمشق، 2001، ص: 25.
- 33- سورة المدثر، الآية: 11.
- 34- بن نبي مالك، الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص: 208.
- 35- بن نبي مالك، الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص: 199.
- 36- غنايم فائق محمد، القيم والعبر والأمثال في القرآن، دار المؤمن، عمان، 2017، ص: 07.
- 37- بن نبي مالك، الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص: 167.
- 38- سورة القلم، الآية: 04.
- 39- سورة الأحزاب، الآية: 21.
- 40- بن نبي مالك، الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص: 195.
- 41- بن نبي مالك، الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص: 196.
- 42- سورة النساء، الآية: 58.
- 43- سورة الرحمن، الآية: 60.
- 44- علي محمد، كتاب شرح الفقه الأكبر، مطبعة العثمانية، 1886، ص: 224.

- 45-سورة النور، الآية: 22.
- 46-سورة آل عمران، الآية: 134.
- 47-عاطف محمد، معوقات النهضة ومقوماتها في فكر مالك بن نبي، دار قرطبة، الجوائز، ط1، 2009، ص: 204.
- 48-المالقي هيام، التميز الفكري عند مالك بن نبي، مجلة فيصل العدد 196، 1993، ص: 30.
- 49- بوكرواح نور الدين، جوهر مالك بن نبي، المرجع السابق، ص: 27-28.
- 50 - المالقي هيام، التميز الفكري عند مالك بن نبي، المرجع السابق، ص: 30.
- 51 - بوكرواح نور الدين، جوهر مالك بن نبي، المرجع السابق، ص: 22.
- 52-المرجع نفسه، ص: 29.
- 53- المالقي هيام، التميز الفكري عند مالك بن نبي، المرجع السابق، ص: 29.